ثقافة المقاومة للاستعمار عند قبائل البرانس

-البنيات الاجتماعية السياسية-

محمادي هرنان : دكتوراه في العلوم السياسية

إن التطرق إلى ثقافة المقاومة بالمغرب يتطلب من الباحث معالجتها من الناحية المنهجية كثقافة عامة رئيسية تهم المجتمع ككل وكثقافة خاصة فرعية تهم مجالا جغرافيا محددا لكن ضمن أفق أوسع أي الثقافة العامة.

في هـــذا الإطـار يمـكــن معالجة هذا الموضوع من خلال محورين أساسيين وهي :

1-الجذور التاريخية والسياسية والفكرية لثقافة المقاومة بالمغرب.

2- قيم وثقافة المقاومة للغزو الفرنسي بقبيلة البرانس.

I-الجذور التاريخية والسياسية والفكرية لثقافة المقاومة بالمغرب

فيما يخص هذا المحور أي الجذور التاريخية لابد من التذكير في عجالة بالموقع الاستراتيجي لتازة وحوض وادي إيناون عبر التاريخ .

1- تازة الممر/ تازة الموقع وقبل مجيء الإسلام شكلت موقع تجاذب بين مختلف الممالك الأمازيغية الواقعة غرب تازة وبين تلك الواقعة شرقها بشمال إفريقيا خاصة الجزائر.

2- تازة كانت كذلك موقعا استراتيجيا يساهم في صعود الدول المتعاقبة على حكم المغرب وسقوط أخرى هذا عدا كونها قاعدة أساسية لتوسع الدول نحو الشرق أو نحو غرب شمال إفريقيا وتحقيق المشروع الإمبراطوري .تازة غالبا ما شكلت ملجآ آمنا وخلفية مضمونة تستقبل وتدعم الثوار ومدعي العرش حتى ولو كانوا من داخل السلالة الحاكمة .

3- بعد احتلال الجزائر سنة 1830 وهزيمة المغرب في حرب إيسلي سنة 1844 تكرس اختلال موازين القوى لصالح فرنسا والقوى الأوربية التي ومنذ ذلك الحين تحولت الدولة من دولة جهاد مؤجل إلى دولة حدود فقط تتبنى سياسة أخف الضررين .

إن المعاهدات والاتفاقيات التي عقدها المغرب خلال المرحلة الممتدة من سنة 1844 إلى 1912 فيما يخص الحدود مع فرنسا واسبانيا والامتيازات الخاصة بالأجانب وقضايا فرض الإصلاحات ومشكل الحمايات الخاصة بالرعايا المغاربة التي تعتبر ذمة معكوسة – مثلا حصول الحاج عبد السلام شيخ زاوية وزان على حماية فرنسا سنة 1883- كانت كلها تمس بالسيادة المغربية مما جعل المؤرخ عبد العروي يلخص وضعية الحمايات قائلا:" كون السيادة الإسلامية قد انفصلت عن سيادة السلطان فهذا بديهي بعد سنة 1860 عندما طرح مشكل الذمة عبر مصطلحات جديدة وذلك نظرا لأن أهل الكتاب رفضوا البقاء تحت حماية المسلمين ونظرا لأن بعض المسلمين أصبحوا تحت حماية الكفار".أنظر:(A.**LAROUI** : LES ORIGINES…P :210).

عجز السلطة المركزية على مواجهة الآخر الغازي جعل من مشروع الجهاد والعدل قضية مركزية لدى الكثير من القوى السياسية الدينية والفكرية التي لم تقتصر على دعوة السلطان إلى الجهاد بل تجاوزته إلى سقف الثورة عليه لكونه أخل بشروط البيعة.

خلال هذه المرحلة تطورت الثقافة والقيم العامة والخاصة للمقاومة بالمغرب حيث ظهرت شخصيات وزعامات جهادية ربطت بين الجهاد والسيطرة على السلطة نذكر من بينهم:

- **الشريف محمد العربي العلوي المدغري الدرقاوي** شيخ الطريقة الدرقاوية بالجنوب الشرقي للمغرب حيث قام هذا الزعيم السياسي الديني منذ 1863 بتوزيع منشور للتحريض على الجهاد. وبعد فشل رهانه على السلطان الحسن الأول سنة 1888 وجه دعوته الجهادية إلى المجتمع ومكوناته القبيلة.

بموازاة دور شيخ الطريقة هذا، تزعم العديد من العلماء الدعوة إلى الجهاد مثل **الكردودي** مؤلف كتاب " كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على الأمة" **ومديدش التسولي** الذي نظر لكيفية تعبئة الموارد البشرية وتنظيم الجيش لإعلان الجهاد **ومحمد غريط الوزير** ، **ومحمد الشنكيطي** الذي وظف الشعر في الدعوة إلى الجهاد **ومحمد بن عبد الكبير الكتاني** الفقيه وزعيم الزاوية الكتانية الذي رفض نظام الحمايات وغيرها من السياسات العامة المضرة بالمغرب مطالبا بالاعتماد على الشورى حيث قال " وإذا أردتم إبرام أمر فليكن شورى بينكم وليس لأحد منكم أحق بالإيثار بالحق من الآخر فمن لاح على لسانه الحق فليتبع" .(**محمد الباقر الكتاني :** ترجمة ... ص 35) .

- **بوعزة الهبري:** ينتمي هذا الزعيم إلى عائلة المرابطين/ الصلحاء المستقرين بشرق المغرب وغرب الجزائر المحتلة التي تتوفر على مكانة اجتماعية ودينية ورمزية بين القبائل تؤهلهم للقيام بوظائف الصلح والتحكيم وبالتالي التأثير المادي .**بوعزة الهبري** ليس شخصا عاديا من عامة الناس بل عالما كذلك حيث كان يزور جامع الأزهر ويلقي على طلابها دروسا في الفقه وعلم النبات .إنها مؤهلات ومواقع جعلت من الهبري زعيما لكن بمواصفات مهدوية كان يحكيها **سعيد بن أحمد السغروشني** على أتباعه قائلا: " بان والده أوصاه بان القادم عليه من الشرق والطالب اليه السلهام الذي تركه له هو صاحب حاجتك فاتبعه ولا بد لك من الملك على يده ".(**عبد الرحمان المودن :** البوادي المغربية...:ص 405). اعتمد **بوعزة الهبري** زعيم الحركة الجهادية المنطلقة من شرق المغرب نحو العاصمة فاس على كتل قبلية بتازة وحوض إيناون كمجال سياسي ديني مؤطر بالدعوة الإدريسية في مرجعيتها الأولى. حركته الجهادية المبنية كما هو حال المدغري على ثقافة العدل وإسقاط الحاكم العاجز والمستبد أغنت ثقافة وقيم المقاومة البرنوسية برافد ثقافي آخر ألا وهو المهدوية.

- **الجيلالي الزرهوني:** إذا كان الزرهوني يفتقد للمكانة الدينية والعلمية التي يتوفر عليها كل من **المدغري والهبري** وكذا القاعدة الاجتماعية المحلية بمنطقة زرهون فانه يتمتع بكفاءات سياسية وعسكرية اكتسبها وهو موظفا بالبلاط على عهد السلطان الحسن الأول قبل اعتقاله .وهي كفاءات عززها بغطاء ديني اجتماعي من خلال انتماءه للزاوية الدرقاوية بنواحي فاس قبل أن يسافر إلى مقر نفس الزاوية بالجزائر قصد الأخذ من تعاليمها وتوجهاتها السياسية الدينية والتهييء لمشروع غزو السلطة . حركة الزرهوني الإدريسي الأصل والتي انطلقت من تازة معتمدة على تشكيلاتها الاجتماعية القبلية المتنوعة إثنيا أضافت إلى شعار الجهاد المبني على الثورة معطيات وقيم ثقافية أخرى تتمثل في توظيف آليات الدعاية ضد السلطة قصد سحب الشرعية عنها تمهيدا لإسقاطها . وهو عائد من الجزائر يقول **أبا عبد الله السليماني:** "دخل مدينة وجدة وتردد بين قبائل أنجاد وقرر لمن وافقه مقاصده مُظهرا التأفف من حكومة المغرب لأجل خضوعها للتمدن الأورباوي ..." (**أبا عبد الله السليماني:** اللسان ..ص: 144). المعرفة والتجربة السياسية التي اكتسبها الزرهوني بالعاصمة ضمن جهاز المخزن، جعلته يضيف رافدا ثقافيا أخر لمنطقة تازة عبر مخزنة المدينة والقبائل حيث شكل جهازا سياسيا وإداريا وعسكريا على النمط المخزني بكل الطقوس المصاحبة له.لقد مكن

القبائل من جهاز سياسي إداري محلي كما شكل جيشا نظاميا وآخر من القبائل أشرف على تأطيرهما المجاهد **بوعمامة** والأمير **عبد المالك الجزائري** القائد العسكري السابق في الجيش التركي. لم يكن هذا الرافد رغم طابعه المخزني سلبيا 100% بل قيمة مضافة لثقافة المقاومة حيث تحول العديد من القواد المحليين إلى زعماء يقودون رجالات المقاومة ضد الغزو الفرنسي بالاعتماد على التنظيم والسلاح العصريين وما راكموه من تجارب حربية سابقة .

- **المولى عبد الكبير** :بعد فشل ثورة الجيلالي الزرهوني سنة 1909، ظهرت شخصية المولى عبد الكبير كمرشح للعرش . إن بيعته كسلطان من أجل الجهاد بتازة من طرف القبائل هيأ لها مسبقا الأمير عبد المالك الجزائري الذي له روابط تاريخية بالمنطقة منذ جده الأمير عبد القادر وله خبرة بمجالها وعلاقات مع ساكنتها خلال سنوات ثورة الزرهوني .رغم فشل مشروع المولى عبد الكبير في غزو السلطة فإن ثقافة المنطقة تعززت بحضور مكثف لقيم الشرفاوية التي مثلها زعيم ينتمي إلى السلالة الحاكمة .

4- تازة الممر /الموقع،كانا كذلك أساسيا في تحقيق المشروع الفرنسي الأمبراطوري الاستعماري حيث صرح الجنرال **ليوطي** قائلا" تازة قبل كل شيء" وأضاف **أغوست برنار** " فطالما أن هذه الطريق ليست بأيدينا ،فإن وحدة أمبراطوريتنا تبقى غير ثابتة**".(ميمون مدهون:** المقاومة في منطقة تازة...ص:89**)**

إذا كانت منطقة تازة وحوض وادي إيناون قد استقبلا وتبنيا حركات يقودها زعماء الجهاد من الخارج وبالرغم من فشل كل مشاريع السيطرة على السلطة الشرط الأساسي للجهاد وتحقيق العدل فان هده المشاريع ساهمت بشكل كبير في تعزيز ثقافة المقاومة بروافد جديدة كما أنها زادت من صلابتها وجذريتها خصوصا وان الاستعمار على أبواب العاصمة فاس.

مقاومة المنطقة للغزو الفرنسي تحت قيادات من خارجها،تقليد استمرت عليه قبائل تازة عبر التفافها حول زعامات من المغرب ومن خارجه مثل الأمير **عبد المالك بن محي الدين حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ،ألبرت بارتلز Albert Bartels الملقب بهرمان الألماني الأصل،محمد الحجامي ،محمد الغازي، الشنكيطي والخطابي من المغرب .**

هده الظاهرة أي تبني زعيم من خارج القبيلة،أثارت انتباه الدكتور **سمير بوزوينة** وهو بصدد انجاز دراسة حول مقاومة قبيلة البرانس كما أن الدكتور **محمد الوردي** اختار الاشتغال ضمن أطروحة الدكتوراه على دور الزعامات في قيادة المقاومة البرنوسية وكلا العملين من منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

هده الإشكالية لا تزال مطروحة الآن للبحث والدراسة والتي تتطلب مجهودات تساهم فيها مختلف العلوم الإنسانية بمناهجها المختلفة والغنية .

غياب زعامات محلية قوية بالبرانس وغيرها من قبائل تازة مقارنة مع الشرق المغربي والريف وجبالة والحوز والأطلس المتوسط ومناطق أخرى بالمغرب يطرح تساؤلات عدة من المفروض الإجابة عنها . فرغم الانخراط الكلي لهده القبائل في العملية الجهادية والثورية تحت قيادة زعامات "برانية"خارجية نجدها غير مستعدة لإنتاج زعامات قوية خاصة بها.

من أجل فهم هذه الإشكالية من المفيد جدا الاستنجاد بالكثير من المقاربات والمناهج العلمية والبحث عن مداخل وبوابات جديدة تمكننا من تفسير هذه الظاهرة.

في هذا الإطار يأتي الجزء الثاني من هده الدراسة والمتعلق بالبنيات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي قاومت تحول شخصية الزعيم المحلي **المُنْتَدب** إلى زعيم فعلي يعمل على تكريس مكانته من أجل سمو سلطة شخصية قوية على حساب المجتمع القبلي المحلي.إنها قيم وثقافة المقاومة المُقاوِمَـة لأي استبداد مستقبلي محتمل.

II- قيم وثقافة المقاومة للغزو الفرنسي-البنيات الاجتماعية والسياسية للبرانس خلال العصر الحديث

بالرغم من أن العديد من القبائل الأمازيغية المنتمية إلى القبيلة الأصل أي البرانس أحفاد بُـرْنُـسْ حسب النسابين والمؤرخين،اتخذت لنفسها إسما خاصا بدول شمال إفريقيا، كما هو حال قبائل مصمودة، صنهاجة، زيان، كتامة، غمارة...فإنه وحسب المعطيات المتوفرة لازالت بعض المجموعات السكانية والفرق Fraction بمنطقة أكادير وجبل زرهون وطنجة تحتفظ بالاسم الأصلي أي البرانس.

وفي المقابل نجد بشمال تازة أكبر مجموعة اجتماعية وهي عبارة عن كونفدرالية قبلية تحتفظ بالاسم الأصلي أي البرانس وتتكون من أربعة قبائل كبرى هي **بني بويعلا وبني فقوص والطايفة ثم أوربة/وربة** التي نزحت في وقت سابق -بعد التصفية الجسدية والسياسية لزعماء أوربة من طرف إدريس الثاني -من جبل زرهون إلى شمال تازة لتنظم إلى القبيلة الأصل هذا مع العلم أن أوربة سبق لها أن نزحت خلال الغزو العربي من الجزائر إلى المغرب.

يرجع الدكتور **عبد الرحمان المودن** حالة الحفاظ على التسمية الأصل رغم توافد جماعات أجنبية على القبيلة إلى عوامل عدة منها:درجة الالتحام بالنسبة للقبلية والدفاع عن الرصيد التاريخي المشترك،والموقع الجغرافي أي المرتفعات التي تستوطن فيها،حيث يقول:

" بيد أن استمرار نفس التسميات ، بالرغم من الاختلاط النّسبي قد يدل بالنسبة للمجموعة المعينة ، على درجة من الالتحام ، تستوعب الوافدين الجدد ، الذين يضعون من الانخراط تحت التسمية الواحدة، علامة على دفاعهم عن رصيد تاريخي مشترك . فهل من الغريب أن تتواجد القبائل التي حافظت على تسمياتها منذ الأدارسة على الأقل، في مناطق المرتفعات حيث من الواضح انه يسهل الالتجاء والتحصن؟ تلك حالة كل من غياثة، تسول والبرانس. وتلك أيضا حالة سدارتة التي ذكرت غير ما مرة على عهد الأدارسة " كقبيلة " ونجدها اليوم ضمن مجموعة الحياينة،وقد أصبح اسمها يطلق على المناطق المرتفعة من مجال هذه القبيلة فتسمى جبل سدارتة".
(*عبد الرحمان المودن:البوادي المغربية...ص:141).*

عبد الرحمان المودن:البوادي...ص:29

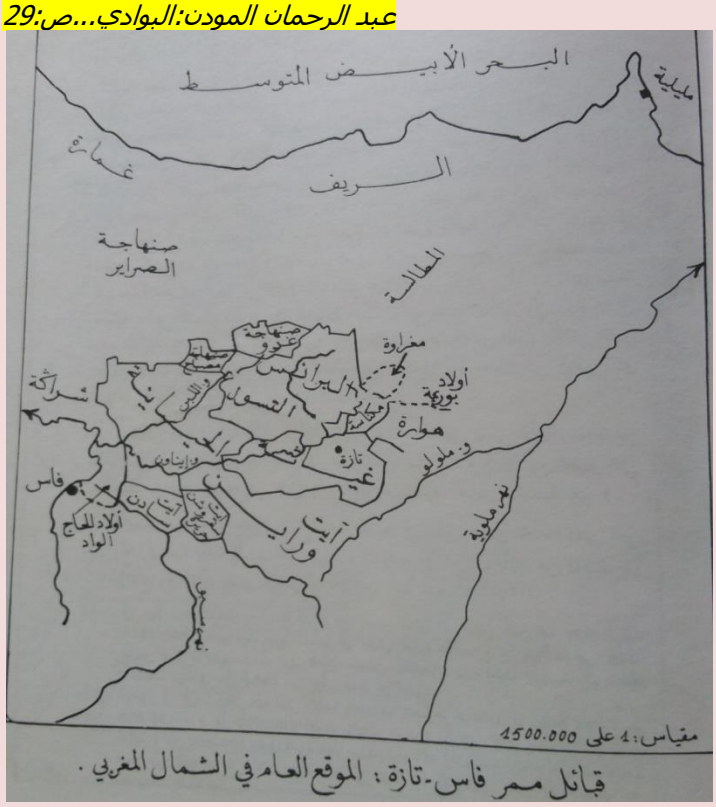

قبائل ممر فاس-تازة : الموقع العام في الشمال المغربي .

ويضيف الدكتور **عبد الرحمان المودن** في مكان آخر "ثمة كتلة قديمة تتمثل في ساكنة المرتفعات الشرقية ، غياتة ، تسول ، البرانس مكناسة وهي المجموعات التي لم تبرح مكانها والتي هي العمود الفقري بالمنطقة **" (عبد الرحمان المودن**: البوادي المغربية...ص:145**).**

أما **الحسن الوزان** الملقب بليون الإفريقي فيقدم صورة مركزة عن قبيلة البرانس خلال العهد المريني وتتمثل في:

- الطابع الجبلي لمنطقة البرانس
- الثروات الفلاحية الغنية
- جمال وأناقة النساء
- الطابع الحاد والحساسية القوية اتجاه أي اعتداء على شرف القبيلة .
- الموقف المعارض للمخزن : عدم تأدية الضرائب حيث يقول :

"جبل البرانس: يقع هذا الجبل على بعد خمسة عشر ميلا شمال تازا وتسكنه قبيلة غنية قوية تملك الكثير من الخيول ولا تؤدي أية ضريبة. ينبت كثير من القمح في هذا الجبل ، وتنتشر فيه حدائق وكروم العنب الأسود ، لكن لا تعصر فيه خمر. نساء هذا الجبل بيضاوات بدينات يتزين بكثير من حلي الفضة لأن القوم أثرياء. والرجال غضوبون حقا وذوو جرأة كبيرة. فالويل لمن يغامر مع نسائهم وكل إساءة أخرى تتضاءل عندهم أمام هذه الإساءة ".(**الحسن بن محمد الوزان:**وصف افريقيا.ص:357**).**

ضعف الحضور المادي للمخزن بالبرانس التي لم تكن خاضعة كغيرها من القبائل المجاورة وعدم تأديتها للضرائب أواخر العهد المريني وبداية العهد الوطاسي كما لاحظ ذلك **الحسن الوزان** نجده ظاهرة مستمرة وقائمة منذ أواسط القرن 19 إلى سنة 1912 .**فالحسن الأول** السلطان الذي كان "عرشه فوق جواده" وهو وصف مركب حول العدد الكبير لحملاته العسكرية لإخضاع القبائل لم يستطع فرض الجهاز السياسي الإداري المكون من القواد والشيوخ على قبائل تازة بشكل دائم وفعال.

فالبرانس كمثال عرفت على عهده ستة قواد قبليين - محمد التِليواني على قبيلتي الطايفة وبني فقوص ،أحمد دَعْلي الفزاري على بني بُوعْلا بينما بقيت قبيلة أوربة بدون قائد وكلاهما لم يعمرا طويلا بسبب اعتقالهما على ضوء نزاع بينهما على من يحكم أوربة. بعد ذلك عين القائد سْطِيطُو بقبيلة أوربة،القائد أحمد بن الطيب ببني بوعلا ،القائد مسعود دْعامَرْ بالطايفة ثم أحمد دَسْعِيدْ قائدا ببني فقوص- لكن هذا الحضور المخزني كان منذ البداية فاقدا لعوامل وظروف استمراره وفعاليته .فالبرانس رفضت تمويل الحملات العسكرية الحسنية-الحسن الأول- ضد القبائل الأخرى كما رفضت المشاركة فيها منذ 1888 وفي نفس الوقت قامت قبيلة بني بوعلا بالثورة على قائدها أحمد بن الطيب العمراني وأحرقت منزله واستولت على ممتلكاته.
ثقافة المقاومة هده للسلطة المادية للمخزن دفعت هذا الأخير سواء على عهد السلطان الحسن الأول أو عبد العزيز ثم عبد الحفيظ إلى التخلي عن تفكيك البرانس عبر آلية القياد المحليين والاقتصار بدل ذلك على باشوات معينين بتازة كقوة مادية لكن ضعيفة لا تستطيع ضمان إخضاع البرانس وجيرانها .
نفس المصير كان ينتظر محاولة الجيلالي الزرهوني المتمثلة في مخزنة البرانس وغيرها من

القبائل عبر تمكينها من جهاز سياسي إداري محلي مثل القائد اعْمَرْ دْقَشْمار والقائد عامَرْ التِليواني الذي وبعد مقتله سنة 1904 خلفه القائد أحمد بَقّاش بقبيلة الطايفة،القائد عبد الرحمان الثْرايْبِي والقائد عْلي المَرّاحي الجْراوي بقبيلة بني فقوص،القائد الكُوراري بقبيلة وربة ثم القائد حمّو الفَزّاري بقبيلة بني بوعلا.

انخراط القبائل ماديا وماليا في مشروع الجهاد المرتبط بشرط الاستيلاء على السلطة لم يكن يعني الاستغناء التام عن المؤسسات السياسية العسكرية المحلية مثل مجلسي الجْماعة وبُولَـرْباع .بمجرد انتقال الزرهوني إلى الشرق والريف وتعويض مكونات الجهاز العسكري السياسي التازي بمكونات وشخصيات من مدينة وجدة تخلت قبائل تازة عن دعمه متمسكة ببنياتها السياسية القبلية المحلية في انتظار الانخراط في الحركة الجهادية للفقيه الحجامي والتي مهدت لتحول بعض القواد مثل علي الجْراوي ثم لاحقا الخَلادي وغيرهما من الأعيان إلى زعماء مقاومة محليين لمواجهة الجيش الفرنسي ما بين 1912 و 1926 .

هذه القبائل الأربع هي التي تشكل مجتمعة الوحدة الاجتماعية الأكبر أي كونفذرالية البرانس التي تحدها العديد من القبائل الكبرى على ضفتي ممر تازة وهي : مكناسة، التسول، مغراوة كزناية وصنهاجة،الحياينة، منها من هو معرب بشكل كبير ومنها من لا يزال أمازيغيا كحالة مغراوة وكزناية.

إن كونفدرالية البرانس وكما هو الشأن بالنسبة لقبائل مجاورة مثل مكناسة والتسول ومرنيسة وصنهاجة قد فقدت الكثير من لغتها الأمازيغية تحت ضغط تأثير القبائل العربية التي تم استقدامها إلى المغرب بهدف توظيفها عسكريا وسياسيا من طرف مختلف الدول المتعاقبة على الحكم وكذا تحت تأثير مختلف الزوايا ورجال الدين والفئات الاجتماعية التي تدعي الدين أو تحتكر لقب " الشرفاء ".

فقدان البرانس لجزء كبير من ارثها اللغوي الأمازيغي لم يحل دون احتفاظها بتقاليدها في التنظيم الاجتماعي والسياسي ذي الأصول الأمازيغية.

عند الرجوع إلى إسهامات الباحثين سواء كانوا أجانب أو مغاربة أمثال:**بول باسكون ،المختار الهراس ،روبير مونطاني ROBERT MONTAGNE ،كيرلو QUERLEUX** وغيرهم من الباحثين الذين اهتموا بالمجتمع القبلي، يتضح أن القبائل الأمازيغية سواء تلك التي تعربت مثل غمارة ومصمودة بالشمال الغربي للمغرب أو قبائل زمور وزايان وأيت باعمران التي لم يطلها التعريب ، تكون الخلاصة هي أن القبائل ذات الأصل الأمازيغي ومنها البرانس كانت قبيل الاستعمار تحتفظ بنفس البنية الاجتماعية السياسية والثقافية التي تتواجد بقبائل أمازيغية بالسوس والأطلس والريف.

تتشكل البنية الاجتماعية السياسية للبرانس من المستويات التالية: العائلة الممتدة كوحدة أولية و الفخدة أو الفرقة والقبيلة ثم الكونفدرالية.

1-**العائلــة الممتدة**:إن العائلة الصغيرة أي الأسرة وان كانت هي النواة الأولية للبنية الاجتماعية في الحفاظ على استمرارية الإنتاج : التوالد ، العمل ، الأمن فإن أدوارها هذه لا معنى لها إلا

في إطار أوسع أي العائلة الممتدة/الإخس عند القبائل الأمازيغية أو العضم لدى نظيرتها المعربة.

نجد على رأس هذه الوحدة الاجتماعية رب العائلة ثم يليه الأبناء والأحفاد ضمن تراتبية داخلية تتحكم فيها عوامل السن والجنس والجاه والثروة.كل هذا يتحدد من خلال النسب الأبوي المُحَدّد لأي انتماء وكذا من خلال العلاقة مع المجال/ المكان. فكل عائلة، بمعناها الواسع، تسكن حسب عدد الأسر أو الكوانين ، مجموعة من المنازل القريبة من بعضها البعض إلى حد يصعب التمييز فيما بينها في بعض الأحيان، وتستغل أراض ضمن نشاط إقتصادي يومي تشارك فيه كل اليد العاملة المتوفرة لدى العائلة، التي قد تستعين بإفراد أجانب بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة، بحيث نجد بعض رؤساء العائلات الذين لهم جاه وتأثير يتوفرون على خدام أو أسر صغيرة نزحت من قبائل مجاورة يقدمون خدماتهم مقابل الحماية. يطلق على هؤلاء النازحين لقب"المحايز"أي الأشخاص المنضمين لعائلة كبيرة . هؤلاء الأجانب لا يمكن الاعتماد عليهم في آلية التضامن العائلي التي تبقى حكرا على أفراد العائلة بالنسب الأبوي لكنهم مع مرور الوقت قد يتحولون إلى جزء من العائلة عبر المصاهرة مثلا.

قبل الاستعمار بقليل استقبل **مُوحْ دْشَخّاد** وهو أحد الأعيان بجبل هسكورة فرقة أولاد جرو **مُوحْ دَنْويرَة** الفار من فرقة بني خَلّادْ بسبب جريمة قتل حيث زوجه من أخته بينما تزوجت بناة أخيه الثلاث بعرسان من عائلتي الخُوضَر وعْمِيروش.كما استقبل القائد علي الجراوي المراحي السيد **زامْبُو** الصنهاجي الأصل لنفس السبب وزوجه من ابنة **بُودُومَة** أحد أفراد عائلته.إن انتقال موح دنويرة وزامبو من موقع "المْحايز"/المحمي إلى مكانة أعلى ضمن الهرم الاجتماعي -عائلات كبرى-فرضته الظروف التي كانت تعيشها منطقة تازة كثورة الجيلالي الزرهوني ثم الاستعمار الذي على الأبواب.هكذا نجد المؤهلات الشخصية مثل الشجاعة والشخصية القوية للرجلين-نويرة وزامبو- تنقلهما من رجال عاديين إلى شخصيات تتهافت عليهم العائلات وأعيانها قصد الإستقواء بها داخليا وفي مواجهة الزحف الفرنسي،علما بأن علي الجراوي وكذا موح دشخاد كانا من بين القادة المحليين للمقاومة البرنوسية.

جبل هسكورة حيث منزل موح دشخاد

واجهة منزل القايد علي المراحي بدوار عين الثلاثاء

إن مؤسسة الزواج التي تتميز على العموم بطابعها الداخلي أي الامتناع عن الارتباط بين فردين لا ينتميان لنفس العائلة الكبرى تعتبر أحسن ضمانة للحفاظ على بنية النسب وحتى على الممتلكات والأموال.

هذا فيما يخص العائلة الموسعة المستقلة بنسبها والمنتمية إلى جد واحد محدد ومعروف، لكن الوضع يختلف كثيرا عندما يكون هذا الجد الأصل عاش خلال ثلاثة أو أربعة قرون سابقة كما هو الشأن بالنسبة لبعض العائلات الكبرى مثل : لَمْرارْحة، الخُوضَر، الهُزْلَة...

في هذه الحالة تصبح التحديدات السوسيولوجية أوسع:

- تتحدد العلاقة مع المجال من خلال سكن فروع من العائلات الكبرى بأكثر من دوار.
- ينتقل الزواج بين فردين بالمجال الضيق أي العائلة وأبناء العمومة إلى مجال جغرافي أرحب: داخل نفس العائلة الكبرى مثل الهزلة، المرارحة... ثم في شكل أفقي ما بين هذه العائلات سواء داخل الفرقة القبلية أو ضمن القبيلة/الربع أو ما بين القبائل الأربع المكونة للكونفدرالية القبلية .

عملية الزواج في هذه الحالة تتجاوز إعادة الإنتاج والحفاظ على النسل وترك الخلف والذرية وتوفير اليد العاملة إلى ما هو استراتيجي حربي. فالفرد ليس عامل إنتاج فقط بل جندي كذلك والزواج بين العائلات يتجاوز ما هو اجتماعي إنساني بمفهومهما الضيق إلى مستوى أعلى من التفكير والتخطيط بحيث وعبر تمتين هده العلاقات والروابط الاجتماعية يتم تحقيق التحالفات السياسية والعسكرية/اللف/اللفوفية .

من خلال اختيار مكان الاستقرار والسكن من طرف العائلات نلاحظ توفر السكان على فكر استراتيجي عقلاني .فالسكن في الربع الأخير بأعلى الجبل له دوافع اقتصادية تسمح بالاستغلال الجيد للأرض ومراقبة الإنتاج الفلاحي بالأراضي الصالحة للفلاحة كما له دوافع أمنية وعسكرية .فكلمة "أشبار" كإسم يطلق على مكان/موقع ما، لا يزال متداولا لحد الآن ويقصد به برج المراقبة والدفاع...

تتحرك آلية التضامن العائلي بشكل تصاعدي وموسع حسب نوع الخطر ودرجته ومصدره.فكلما كان الخطر خارجيا تعبأت كل مكونات العائلة الكبرى بغض النظر عن الدرجة التي يوجد فيها الجد. ويصبح التضامن على مستوى الفرقة في مواجهة فرقة أخرى، وعلى مستوى القبيلة في مواجهة قبيلة أخرى وعلى مستوى الكونفدرالية عندما تواجه البرانس ككل بعض جيرانها وعلى مستوى نظام اللف/التحالف الكبير مع التسول ومكناسة وغياثة وغيرهم ضد المخزن أو الاستعمار.

إذا ما هي المؤسسة التي تسهر على هذا التضامن بين مكونات القبيلة، وتعبئة إمكانياتها المادية والبشرية ضد العدو الخارجي؟.إنها مؤسسة " بُولَرْباع "التي تحمل اسم "إنفلاس" أو "أيت الأربعين" لدى القبائل الأمازيغية بالجنوب والأطلسين الصغير والكبير

قبل الحديث عن بولرباع كمؤسسة سياسية للفرقة التي تحمل أسماء مختلفة بمناطق أخرى: تاقبيلت بالجنوب ، الخمس بجبالة والريف، العرش بمنطقة جرجورة بالجزائر، لابد من التطرق إلى "الجماعة" وهي الوحدة الاجتماعية الأدنى التي تعتبر أساسية في تحديد المستويات الأعلى من التنظيم السياسي للقبيلة.

2- مؤسسة الجماعة: الدوار

يعتبر الدوار أو الدشر - تادشرت بالجنوب - ذلك المجال الجغرافي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، الذي تستوطنه عائلتان فأكثر وبعض الأسر الصغيرة الأجنبية التي تعيش في حمايتها.

على مستوى الدوار تتشكل مؤسسة "الجماعة" من ممثلي العائلات وتقوم بالتسيير الإداري للقضايا التي تهم الدوار مثل توزيع التكاليف والأشغال التي على كل عائلة تأديتها أو القيام بها ونذكر من بينها:

- **صيانة المسجد وتعيين الفقيه** وتحديد "النّوبَـة" أي الأكل اليومي للفقيه، و"الشرط"أي ما على كل عائلة تقديمه كأجر سنوي للفقيه وغالبا ما يكون من المنتوج المحلي كالحبوب.
- **تنظيم عملية توزيع الماء** على المستحقين بناء على معيار نسبة الأراضي القريبة من مصادر المياه، وصيانة هذه الأخيرة وكذا الساقية الجماعية.
- **تعيين " الحطاي** " أي حارس "الجنان" المنتوج الفلاحي من أشجار الفواكه، وتحديد أجرته بناء على كمية كل نوع من الأشجار: زيتون، تين، عنب...
- **صيانة المقبرة وحمايتها** ومنع الرعي فيها وإتلافها.
- **تنظيم عملية الرعي بأراضي** البور إذا لم تكن ملكيتها مقسمة بين العائلات.
- **حل النزاعات بين العائلات** وتقرير العقوبات والغرامات على المخالفين مثل: " أكل" المخالف أي دعوة وجمع أكبر عدد من الناس والذهاب بهم إلى منزله لتناول أطباق يحضرها بالمناسبة. وقد يتم الاستعانة بالشرفاء أو المرابطين أو فقيه المسجد الذين يتوفرون على سلطة ومكانة معنوية لحل العديد من النزاعات.

تتطلب ممارسة هذه الاختصاصات الاعتماد على العديد من القواعد المعروفة والمتفق عليها مسبقا هذا مع الأخذ بعين الاعتبار كل ما يطرأ على الحياة العامة من إشكاليات جديدة تفرض على الجماعة الاجتهاد والتوافق على كيفية مواجهتها بحلول قد تتحول مع مرور الوقت إلى قواعد عرفية تتوفر على القوة القانونية .

بالنسبة لكل مستويات التنظيم القبلي،جماعة الدوار وبُولَرْباع أي مجلس الفرقة أو القبيلة أو الكونفدرالية ولكي تمارس هذه المؤسسات كل صلاحيتها لابد من وجود ترسانة قانونية ثابتة لكن منفتحة على التطور وتسمى العرف. فحسب القبطان **روبير أسبينيون Robert Aspinion** "إن العرف ينتقل من جيل إلى جيل آخر وعبر امتداد السنين بالتقليد الشفوي ويطبق على كل ما يخص الإنسان الأمازيغي كالأحوال الشخصية والعقارية والإراثة والعقود وعلاقاته بنظرائه...".(**روبير أسبينيون**:أعراف...ص:20).ويضيف في مكان آخر "لم تكن لدى قبائل زايان قوانين مسننة،ولا قضاة مهيئين لتنفيذها.إن السلطة القضائية تمارسها الجماعة،وعليها تعرض كافة النزاعات".(نفس المرجع.ص:24).

نجد نفس الطرح لدى القبطان **كرلو Querleux** بخصوص قبائل زمور التي تحكمها الجماعة مع وجود شكلي للقائد المعين .فالجماعة وفي غياب القاضي أو أي موظف مشابه بترابها،تجهل تعاليم القرآن والسنة،وتعتمد على العرف في تدبير كل شؤون القبيلة وفض المنازعات كيف ما كان نوعها.(Querleux :Les Zemmours...P :141).

من جهته تطرق برونو Bruno إلى نفس التنظيم لدى بعض القبائل المجاورة لمدينة مكناس مثل أيت ندير/بني مطير،كروان الجنوبية وأيت مكَيلد التي ورغم تواجد البنيات السياسية للمخزن بها كالقائد والشيخ وفقدانها لمؤسساتها السياسية فإنها بقيت محافظة على القانون العرفي والممارسات القضائية الخاصة بها ولم يستطع المخزن تعويض العرف الصامد بالشرع بل في بعض الأحيان أبدى تساهلا وترك للقبائل تدبير شؤونها المدنية اعتمادا على القواعد العرفية التي ورثتها القبيلة (**Bruno** : Notes sur le statut …P :239.أنظر كذلك عباس بخصوص قبيلة زايان بوالماس **M.Abes** :Les izayan d'Oulmes…P :376).

إن القيام بمقارنة بسيطة بين هذه القبائل وبين كونفذرالية البرانس يجعلنا نستخلص ما يلي:

-صمود البنيات الاجتماعية السياسية-الجماعة وبولرباع -لدى كل هذه القبائل رغم محاولات المخزن المركزي تهميشها إن لم يكن إقصائها وتدميرها عبر توطين أجهزته المحلية الممثلة بالقياد والشيوخ .

- قوة وصمود قواعد العرف أمام القوانين المستمدة من القرآن والسنة التي غالبا ما يتم تثبيتها من خلال الحضور المادي للمخزن:قياد،شيوخ،قضاة،عدول...

هذا القاسم الجوهري المشترك بين هذه القبائل لا يعني التطابق التام بينها بل هناك اختلافات -رغم كونها ثانوية- يجب التوقف عندها قصد استجلاء بعض الخصوصيات القبلية.

على عكس قبائل بني مطير وزمور وزايان القريبة من المراكز السياسية الدينية مثل مكناس وفاس والتي تجهل الشرع ولا تطبق إلا العرف فإن قبيلة البرانس التي تبعد عن فاس الحاضرة العلمية ب 120 كلم لم تستثن الشرع كليا من حياتها الخاصة والعامة.فالبرانس حسب ترينكا " يتوفرون على العديد من الفقهاء والقضاء ويطبقون تعاليم السنة والقرآن"(**Trenga** :Les Branes…P :429).ويضيف قائلا" يطبق العرف بالموازاة مع الشرع.قواعد العرف غير مدونة.تنتقل شفاهيا من جيل إلى جيل.العرف واحد لكن قد توجد هناك بعض الاختلافات البسيطة من فرقة إلى أخرى".(IDEM.P :430).

تشتهر قبيلة أوربة أي ربع قبيلة البرانس الواقعة شمالا بدار العِلم لكونها تنتج القضاة المتخرجين من جامعة القرويين بفاس-النخاصة كمثال- الذين وبعد التخرج يُعيّنون من طرف المخزن بالقبيلة حيث نجد لكل ربع قاضيها لكن قاضي البرانس ككل هو الفقيه **سي ابراهيم الوربي** الذي تلجأ إليه أي فرقة/فخدة كيف ما كان انتماؤها في حال عدم اتفاق المتنازعين على قاض قبيلتهم.

تتوزع الإختصاصات بين مؤسسة الجماعة وبُولَرْباع وبين مؤسسة القضاة والعدول بشكل دقيق للغاية.فكل ما يتعلق بالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وإرث وعقود بيع وشراء الأراضي من اختصاص العدول الذين يشرفون على توثيقها تمهيدا للمصادقة عليها من طرف القاضي.سمو مكانة القاضي الاجتماعية والعلمية والدينية هذه مقارنة مع العدول تؤهله كذلك للفصل في القضايا الكبرى والمعقدة التي يعجز مجلس بولرباع عن حلها.فالقاضي لا يتدخل في قضايا النزاعات العقارية إلا إذا فشل الأعيان عن حلها بسبب تعقيداتها أو تبين أن

فرقاء النزاع لهم سوء نية.إذا كان الحسم في قضايا القتل والعديد من الجرائم والمخالفات من اختصاص بولرباع الذي يحدد قيمة التعويض وكذا العقوبات الأخرى بالاعتماد على قواعد العرف فقط فإن القاضي يتدخل في النزاعات المرتبطة بأداء الديّـة من طرف عائلة القاتل.(أنظر **(Ibidem.**P:429-430.

في القضايا الجنائية يتوارى الشرع نهائيا عن الأنظار ليترك المجال أمام العرف الذي هو أساس البث في كل النزاعات من طرف مؤسسات القبيلة كالجماعة ومجلس بولرباع. فجريمة القتل عند البرانس تفترض من حيث المبدأ القصاص أي القتل لكن هذا المبدأ غالبا ما يُسْتبعد،خصوصا وأن التسامح مع حالة الانتقام والانتقام المضاد يحرم القبيلة من الحفاظ على طاقاتها البشرية الأساسية في الإنتاج والحروب.ومن أجل الحد من التداعيات السلبية المدمرة للنسيج الاجتماعي السياسي للقبيلة يُفْرض على القاتل "الخروج طليب" أي المنفى نحو قبيلة مجاورة لمدة معينة قد تصل سنة كاملة.إنها آلِيّـة فعالة وجادة سطرها العرف من أجل تحقيق الأهداف التالية:

- الحفاظ على حياة القاتل من رد فعل عائلة القتيل المتمثل في الانتقام وتداعياته من ردود أفعال مماثلة.

- توظيف عامل الزمن في تهدئة النفوس خاصة لدى عائلة المقتول التي تحتاج لوقت كاف من أجل نسيان نسبي للحادث المفجع .

- أخذ الوقت الكافي من طرف مجلس بولرباع و الأعيان والشرفاء كي يقوموا بدورهم في الوساطة والصلح بين الطرفين.

خلال مدة المنفى تمنع القواعد المتعارف عليها بالعرف أي شكل من أشكال الانتقام من طرف عائلة القتيل، فلا يسمح لها بتدمير منزل القاتل وعائلته ولا مصادرة الأملاك ولا قتل الماشية التي بحوزتهم.لا يسمح كذلك بالانتقام من القاتل وهو تحت حماية من استقبله كمنفي سواء كان رجلا أو امرأة ونفس المبدأ يطبق بالأسواق والطرق والزوايا ومنازل الغير التي يتواجد بها القاتل. قد تلجأ عائلته للتبرؤ منه في انتظار عودته وإبرام الصلح. يشرف على عملية الصلح بعض الأعيان والشرفاء ومجلس بولرباع حيث يقومون بجهد استثنائي قصد إقناع عائلة القتيل التي ورغم تعنتها،تصبح مع مرور الوقت هادئة ولا تبحث إلا على حفظ ماء الوجه. على ضوء مفاوضات شاقة يتم الاتفاق على مبلغ الدية ومختلف التعويضات التي تؤديها عائلة القتيل بالتضامن.بعد مرور سنة كاملة،يعود القاتل تحت حماية الشرفاء مكبل اليدين حيث وبمجرد وصوله بيت عائلة القتيل يقوم أحد أفراد هذا الأخير بفك رباطه بموازاة تسليم مبلغ الدية إلى الأب أو أحد أفراد العائلة الذين يسمحون للقاتل بتقبيل رؤوسهم كإشارة على قبول الصلح وعفوهم عليه.

قيمة الدِيّـة والتعويضات محددة بقواعد العرف وليس بنصوص الشرع. فهي تساوي 300 ريال بقبيلة أوربة و 400 ريال بقبيلة الطايفة بالإضافة إلى عِجْل وكمية من مادة القمح وجرة من السمن أو الزيت أما دِيّـة المرأة فهي أقل حيث تتراوح ما بين 100 و 150 بقبيلة أوربة لكنها أكبر من ذلك لدى القبائل الأخرى.

قد يعود هذا الاختلاف بين قبيلتي أوربة والطايفة إلى كون الثانية أغنى من حيث المنتوج الفلاحي أما الاختلاف بين الجنسين فراجع إلى مكانة الرجل ليس كعامل من عوامل الإنتاج لكن كقوة عسكرية تحتاجها القبيلة المُحارِبة في أي نزاع أو حرب ما.

جرائم السرقة والاعتداء الجنسي والخيانة الزوجية وإتلاف الممتلكات وغيرها من الجرائم كما جريمة القتل تخضع كلها لقواعد العرف التي تحدد عقوباتها المالية والمعنوية ولا تتعداها إلى ما هو جسدي أو يمس الحق في الحياة.(أنظر التفاصيل 334-329: P... Les Branes : **Trenga**).

قواعد العرف المطبقة بقبيلة البرانس تتشابه كثيرا مع العديد من القبائل الأمازيغية مثل زايان الكبرى،زايان ولماس،زمور،أيت ندير،كروان ولا اختلاف بينها إلا في بعض الجزئيات لكن الاختلاف الأهم هو درجة حضور الشرع ضمن المنظومة القانونية.فالبرانس تحتفظ للشرع بمكانة مهمة نسبيا مقارنة مع القبائل الأخرى.(أنظر التفاصيل لدى:

(**روبير أسبينيون**:أعراف...ص. 51-57)،(Querleux :Les Zemmours...P :142-145)

(**M.Abes** :Les izayan d'Oulmes...P :378)، (**Bruno** : Notes sur le statut ...P :239)

يمكن تقديم تفسير ما لهذا المعطى من خلال الانتباه إلى التجربة التاريخية والسياسية والدينية للبرانس التي جمعت بين العرف كاستمرار للهوية العريقة وبين الشرع كنسق جديد من القيم والثقافة اكتسبته القبيلة منذ ظهور الدولة الإدريسية بزرهون.فقبيلة أوربة التي نزحت من منطقة زرهون وليلي بعد تصفية إدريس الثاني لزعمائها واستقرت بجبال البرانس لم تقطع صلتها مع الجغرافيا السياسية الدينية. لقد استمرت في الارتباط بالأصول الأولى للبيعة والدعوة الدينية من خلال العناصر التالية:الاحتفال سنويا بهذا الحدث التاريخي الديني بمناسبة إقامة موسم/لامّة البرية بمنطقة الكوزات شمال تازة،القيام بزيارات دورية للقبيلة الأصل-أوربة- ولكل من ضريحي إدريس الأول بزرهون وإدريس الثاني بفاس ثم متابعة مشروعها الديني الدعوي من خلال التحاق العديد من أبنائها بجامعة القرويين قصد التكوين العلمي في مجالات الفقه والدين...وهذا ما يفسر إلى حد ما تخصص أبناء أوربة في مجال القضاء بالبرانس.

لقد ترك هذا الإرث السياسي الديني لأوربة أثرا كبيرا بكونفذرالية البرانس التي أدمجت بعض قواعد القرآن والسنة في منظومتها القانونية التي يسيطر عليها العرف بامتياز.إن التمسك بالعرف والبنيات السياسية الإدارية الخاصة مثل مجلس بولرباع، حصن القبيلة وجعلها مستقلة وفي نفس الوقت مكنها من ثقافة مُقاوِمَة للكثير من الاختراقات الإيديولوجية والسياسية التي عرفها المغرب منذ ظهور الدولة الأمبراطورية الموحدية.

3-المؤسسة السياسية للفرقة : بُـولَـرْباع

رغم مرور أزيد من قرن على انقراض هذه المؤسسة بسبب فرض فرنسا وبعدها الدولة المستقلة لمؤسسات سياسية وإدارية أخرى، فإن الذاكرة الجماعية المحلية لا زالت تحتفظ بكلمة "بولرباع" خصوصا بعض الاختصاصات التي كان يتوفر عليها هذا المجلس الذي كان يتكون من نخبة من رؤساء العائلات الكبرى على مستوى الفرقة القبلية FRACTION DE TRIBU وعلى مستوى كل من القبيلة والكونفذرالية الكبرى أي البرانس.

سيطرة الشخصيات المهمة على مجلس بولرباع ليست خاصة بالبرانس بل تهم العديد من قبائل المغرب التي لا توجد فيها سلطة مخزنية قوية. تتوفر قبائل الريف حسب المؤرخ **جرمان عياش** على مؤسسات سياسية ديمقراطية على مستوى الدوار والفرقة القَبَلِيّـة/الفخدة وكذا القبيلة.تقتصر التمثيلية في هذه المؤسسات على رؤساء العائلات ملاك الأراضي الذين يشكلون مجلس الجماعة ومجلس الفرقة والقبيلة.مجلس الجماعة يُشَرّع ويقرر في العقوبات المتعلقة بكل المخالفات التي تهم حقوق الجوار وواجبات الضيافة كما يعين الشيخ الذي يمثله وينفذ قراراتها.وعلى مستوى الفرقة/الفخدة Fraction يتكون المجلس الذي يسهر على أمن السوق من مختلف شيوخ الجماعة وبعض الأعيان.لكن هذه المؤسسة ومنذ عشرة قرون خلت،توقف نشاطها بسبب تعويضها بالقائد المرسل من العاصمة أو المعين من طرف المخزن من بين شخصيات القبيلة.(أنظر G.Ayache :Les origines…P :100-101).

إذا سلمنا بأن الفرقة/الفخدة بالبرانس هي عبارة عن وحدة اجتماعية واقتصادية وسياسية ، فان العيش المشترك والتضامن يتطلب بالضرورة آليات للسهر على ضمان شروط العيش بمفهومها الواسع.

هنا يأتي دور مجلس "بولرباع" كمؤسسة تسهر على استمرارية مختلف المرافق الجماعية المشتركة بين الدواوير المكونة للفرقة: مسجد، مقبرة ، مصادر الماء ، مراعي، غابة، أمن، جنان ...وعلى حل النزاعات والخلافات بين الأفراد والعائلات فيما بينهم أو مع الفرق المجاورة...

وكمثال تحتفظ الرواية الشفوية والذاكرة المحلية بواقعة تدخل "بولرباع" في حادثة قتل وقعت قبيل الحماية بدوار باب جنان بمنطقة باب المروج حيث تم الحكم على عائلة شاب قاتل"**موح دالمعلم**" بأداء عشرين مدا من القمح (حوالي 220 كلغ) وبقرة لفائدة أسرة القتيل، و"الخروج طليب" أي المنفى من فرقة أولاد جرو إلى قبيلة الطايفة المجاورة لمدة سنة، وهذا الحكم يتضمن عدم أخذ الثأر من طرف أسرة القتيل تطبيقا للعرف وبذلك يتم الحفاظ على جميع الطاقات البشرية للإنتاج والدفاع عن القبيلة.

يعتبر التوازن ما بين الفرق الخمس داخل القبيلة أو ما بين القبائل الأربع داخل كونفدرالية البرانس ، ضروريا وحيويا يجب الحفاظ عليه ضدا على أي استفراد بالقرار من طرف رئيس أو مقدم ينتمي إلى فرقة أو قبيلة بعينها. وكل نزوع للاستفراد بالقرار من طرف المقدم، يفسر على أنه يهدف إلى تغليب السلطة الشخصية على حساب الأعضاء الآخرين والفرق القبلية التي يمثلونها.لذا يكون الحذر شديدا اتجاه مغامرة من قبيل بروز هذه السلطة التي في النهاية قد تعصف بالتوازن وروح التضامن بين الفرق/Fractions وبالتالي انهيار التنظيم القبلي أمام أي خطر خارجي محتمل.

خلال تحليله للبنيات السياسية للقبائل الأمازيغية تطرق **أوغوست برنار** AUGUSTE BERNARD إلى مصير الشيخ أو المقدم الذي يغامر بتهميش مجلس 'الجماعة' قائلا: " الشيخ محكوم بإرادة " الجماعة " التي إن حاول تجاوز حدود سلطته ، تقوم بتغريمه أو قتل ماشيته أو تدمير بيته أو قتله".(A. BERNARD :LE MAROC.P :216).نفس البنيات تقريبا نجدها مشتركة مع مجموعات اجتماعية خارج المغرب.لقد درس بيير كلاستر Pierre Clasters بعض قبائل الهنود الحمر بأمريكا مثل قبائل Orénoque – Cubéo - Tupinamba ووقف على ظاهرة غياب الزعامة

القوية المستبدة.فغالبا ما تتوفر القبيلة على زعيمين/سلطتين،إحداهما مدنية والثانية عسكرية."خلال المعارك الحربية يتمتع الزعيم بسلطة مطلقة نفوذا في بعض الأحيان،ولكن بعد أن يستتب السلم يفقد هذا الزعيم كل نفوذه،إذا،إن نمودج السلطة القسرية،لا يكون مقبولا إلا في ظروف استثنائية،أي عندما تواجه الجماعة خطرا خارجيا".(**بيير كلاستر:**مجتمع اللادولة...ص:32).لكن نفوذ الزعيم هذا مؤقت حيث"يجد نفسه خاضعا لرقابة دقيقة تابعة لمجلس القدماء في زمن السلم.الشيء نفسه نجده عند جماعة Jivaro،لا زعيم لهم إلا وقت الحرب .إن السلطة الاعتيادية،المدنية،والمرتكزة على الإجماع العام لا على الإكراه هي من طبيعة هادئة،ووظيفتها أيضا وظيفة المُهَدّئة:إن على الزعيم مسؤولية نشر السلم والانسجام داخل الجماعة،هكذا،فإن عليه فض المنازعات وحل الاختلافات ليس عن طريق استعماله قوة غير معترف بها ولا يملكها أصلا ولكن بالاتكال على نفوذه وسمعته...".(نفس المرجع والصفحة).

غياب بنية الزعيم لدى الكثير من القبائل بتازة والمغرب،ليست عامة بل نجد في العديد من مناطق المغرب بروز السلطة الشخصية وتبلورها على حساب المؤسسات القبلية ذات الطابع الجمهوري .لقد توقف روبير مونطاني وعلى عكس ما نجده بقبيلة البرانس عند أهم محطات بروز السلطة الشخصية لدى قبائل الأطلس الكبير والصغير.فرغم مظهرها الجمهوري فإنها تتميز ببنية تراتبية اجتماعية تستغلها شخصية طموحة إلى الزعامة بدعم من العائلة الأقوى ضمن تاقبيلت أي الفرقة/الفخدة."تتكون هذه الأخيرة دائما من عشرة أو خمسة عشر عائلة يكون من بينها اثنين أو ثلاث عائلات وأكثر غنى،وقوية عسكريا حيث تطلب منها العائلات الأخرى الحماية والمساندة".أنظر:(R.Montagne :Les berberes...P :297)

ينعكس هذا التفاوت الاقتصادي والاجتماعي على البنيات السياسية .فمؤسسة أيت الأربعين الديموقراطية في ظاهرها،تحبل بصراع مراكز القوى التي تتمثل في العائلات القوية والمؤثرة مما ينتج عنه إفراغ المؤسسات من محتواها الديموقراطي وهو ما يظهر جليا كلما طرح مشكل انتخاب أيت الأربعين للمقدم الذي يكون من نصيب العائلة الأكثر نفوذا.صعود نجم المقدم وبدعم عائلته يتم عبر مسار معقد من السياسات نوجزها كالتالي:الاستيلاء على القرار والمداخيل المالية الخاصة بمجلس أيت الأربعين،التحول إلى أمغار/شيخ والتحكم في تعيين أعضاء المجلس وكذا المقدم،تقوية سلطته عبر التحالفات والدسائس والحروب ضد الأعداء الخارجيين وما ينتج عن ذلك من استفراد بما لديهم من سلط وثروات ...

إنه بقدر ما ينفصل الزعيم/الأمغار عن البنيات القبلية التي انطلق منها كقاعدة صلبة،بقدر ما يعمل على تهميش مؤسساتها،إن لم نقل تدميرها.وهي عملية تتقاطع في كثير من الأحيان مع مرحلة انتقال الزعيم من الاكتفاء بالنفوذ المحلي إلى التوسع الخارجي البعيد ومع كذلك لحطة إدماجه من طرف المخزن وتعيينه قائدا بصفة رسمية مما يسمح له بتهميش المؤسسات القبيلة إن لم يقم بإعدامها.أنظر:(R.Montagne :Les berberes...P :297...305).

ظاهرة القياد الكبار مثل الكندافي والكلاوي بالحوز والأطلس الكبير التي تطرق إليها كلا من روبير مونطاني وبول باسكون لم تشد عن القاعدة العامة كثيرا،فهي كسلطة وإن انطلقت من الفرقة القبلية/تاقبيلت منذ على الأقل منتصف القرن 19 فإنها استغلت بذكاء المواقع التالية:القرب من قياد المخزن،التحكم في السلطة الدينية كالزاوية والمسجد ،المراقبة

القوية للموارد المالية كتجارة الملح والأسواق والقوافل التجارية،المصاهرة مع كبار الأعيان والتحالفات والحروب...أنظر (P.Pascon:Le Haouz…T:1.P:299…370)(R.Montagne:les berberes…P:297…305).

بغض النظر عن عامل المؤهلات الشخصية للزعيم المستقبلي وبالمقارنة مع بروز ظاهرة الزعماء القبليين بالجنوب نجد اختلافا كبيرا بين الجنوب وبين العديد من قبائل تازة في مجال ظهور الزعامات .فالبرانس كمثال ورغم وجود شخصيات محلية من بين الأعيان الذين عينوا لاحقا كقياد من طرف الجيلالي الزرهوني المبايع سلطانا بتازة سنة 1902 فإن هذه الزعامات لم تعش نفس تجربة الجنوب من حيث صيرورة بروز الزعامات وتطورها بل كانت مجرد شخصيات لها وزن ومكانة نسبيين ضمن النسيج الاجتماعي السياسي لا تؤهلها لاتخاذ نفس مسار الزعامات بالجنوب بل فقط لاحتلال مكانة القائد العسكري الذي يعبئ الموارد البشرية والمادية وغيرهما ضمن إستراتيجية الثورة والاستيلاء على السلطة بفاس وهو ما عاشته قبل 30 سنة تقريبا خلال ثورة بوعزة الهبري.

إن قيم وثقافة المُقاوَمة المُقاوِمة لظهور السلطة الشخصية القوية والزعامات بقبيلة البرانس كانت قوية إلى درجة أنها حالت دون استمرار وتطور ظاهرة القياد المعينين من طرف السلطان الحسن الأول والجيلالي الزرهوني الملقب ببوحمارة.فقوة البنيات الاجتماعية السياسية والفكرية والذهنية وما تتميز به من ديناميكية حية، تعتبر الحاجز القوي والمنيع في وجه ظهور الزعيم المُفَكِّك لهذه البنيات.

بخلاف هذا نجد بقبائل **فيكَيكَ** مسار آخر لتطور البنيات الاجتماعية السياسية.إذا كانت العضوية في جماعة الدوار أو الفرقة مرتبطة بعامل الانتماء إلى عائلة ذات ثروة ونفوذ فإن منصب الشيخ يتحدد ليس فقط بالمكانة الاقتصادية للعائلة بل بعوامل أخرى مثل رجاحة العقل،المعرفة والتقوى والشجاعة في الحروب .مؤهلات مثل هذه يوظفها الشيخ في قيادة المقاتلين من فرقته أثناء الحرب ضد القبائل الأخرى أو ضد الفرنسيين وأعوانهم من القبائل الجزائرية المناوئة تمهيدا للاندماج في الهيكل المخزني الرسمي عبر حصوله على ظهير يتم بمقتضاه تعيينه قائدا على القبيلة.ينتج عن هذا،رفض الفرقة وجماعتها التي لا ينتمي إليها القائد لهذا التعيين وفي حالات أخرى قبول تواجد القائد مع حفاظ الفرق/الفخدات وجماعاتها على كل سلطها واختصاصاتها وأعرافها.(أنظر التفاصيل:**أحمد مزيان**:المجتمع والسلطة...ج 2.من الصفحة 34 إلى 42).

يتعزز صمود البنيات الاجتماعية السياسية بالبرانس كذلك بآليـــات أخرى موازية وقوية داخل كل مستويات التنظيم القبلي مثل مفهوم "الخوت" ومفهوم "اللف" .فقبيلة بني فقوص مثلا المتكونة من خمس فرق Fractions تعتمد بشكل فعال على هذه الآليات لضمان الاستقرار والتوازن فيما بينها.فبمناسبة حدوث نزاع ما بين فرقة الترايبة وفرقة أولاد جرو كمثال نجد آلية اللف تتأهب وتتحرك.هكذا نجد اصطفاف فرقتي أولاد حدو واللحالحة مع الترايبة واصطفاف فرقة بني فتح مع أولاد جرو بناء على مفهوم "الخوت" الذي لا يعني الانتماء إلى جد واحد بل هو شعور جماعي بالانتماء إلى مجموعة اجتماعية واحدة. هذه الآلية التي تضمن التوازن،تفتح المجال أمام ممثلي مجلس 'بولرباع' والشرفاء والمرابطين وممثلي الزوايا للتدخل وحسم الموقف من أجل ضمان السلام والعيش المشترك.

فرقة أولاد جرو التي تحد مع فرقة الترايبة بالوادي في أسفل الجبل

فالحرب بين الفرق/الفخدات وحتى ولو لم تدمر الجميع فإنها قد تستغل من طرف شخصيات طموحة للزعامة تتحول مع مرور الوقت إلى شخصيات قوية مستبدة تقضي على جميع المؤسسات وتستعبد الجميع بما فيهم ساكنة الفرقة القبلية التي ينتمي إليها الزعيم. لا يزال الكبار في السن بقبيلة بني فقوص يتداولون روايات تخص حالات النزاع بين فرقتي الترايبة وأولاد جرو والتي استمرت بشكل ضعيف إلى ما بعد استقلال المغرب لكن وبالإضافة إلى الآليات المذكورة كان الكثير من الذين يتدخلون عبر التحكيم والوساطة يقترحون توظيف آلية الزواج ما بين العائلات المنتمية إلى الفرق المتنازعة لأن المصاهرة جد فعالة في نسج علاقات اجتماعية وتحالفات فرعية جديدة وتضمن بالتالي استمرار السلم والأمن وتفادي الحرب التي قد ينتج عنها دمارا أو استبدادا.

نفس الآليات أي "اللف والخوت" توظف بشكل كبير في الأطلس الكبير بين مختلف الفرق القبلية المنتمية لقبيلة مصمودة التي تعتبر حسب النسابة العرب والمؤرخين من بين أحفاد بُرْنُسْ جد قبائل البرانس وغمارة وكتامة وصنهاجة وهوارة وأوربة ومصمودة...(أنظر التفاصيل وأوجه التشابه: R.Montagne :Les berbères...P :206-212).

وماذا عن القبيلة أي الربع ؟

4-القبيلة: المؤسسة والأدوار

بالنظر إلى ما ذكر سابقا حول مؤسسة "بولرباع" على مستوى الفرقة FRACTION ووظائفها والتي تتكون من شيوخ ومقدم – كان مجلس بولرباع لفرقة بني أفتح متكونا من إثنتا عشر -12-شخصا يمثلون أعيان الفرقة حسب الرواية الشفوية – وبالنظر إلى الموقع الجغرافي للقبائل الأربع المكونة لكونفدرالية البرانس: الطائفة، بني فقوص، بني بويعلا وأوربة فإن لكل منها مؤسسة وأدوار.

يطلق إسم **بولرباع** على الفرد والمؤسسة السياسية أي المجلس على السواء، ويقوم بأدوار ووظائف سواء في مرحلة السلم عبر التنظيم واتخاذ القرار والسهر على التنفيذ الجيد له أو في مرحلة النزاعات والحروب عبر تعبئة جميع الموارد والطاقات البشرية للدفاع أو الهجوم على السواء.

في مرحلة السلم يتدخل "بولرباع" لحل المشاكل على مستوى القبيلة TRIBU في القضايا التي تهم الفرق الخمس المكونة للقبيلة أو التي تهم علاقة القبيلة بالقبائل المجاورة مثل:

- تنظيم طرق الاستفادة من العديد من المجالات ومصادر العيش المتواجدة على الحدود بين الفرق أو بين القبائل: الأسواق،أراضي البور، الغابات، مصادر المياه، الوديان، مناجم الملح... فمثلا هناك العديد من الغابات التي تعتبر حدودا بين قبيلتي الطائفة وبني فقوص – غابة أزدم – وأخرى بين قبيلتي أوربة وبني بويعلا...
- التدخل لحل الخلافات والنزاعات التي تقع بين الفرق المنتمية إلى قبيلتين أو أكثر وذلك حفاظا على التضامن بين القبائل الأربع داخل القبيلة الأصل أي كونفدارالية البرانس.
- الدعم السياسي والمعنوي والمادي لإحدى القبائل الأربع في خلافها مع قبيلة مجاورة لا تنتمي إلى البرانس.

في مرحلة الحرب ضد القبائل المجاورة أو في مواجهة الحملات العسكرية للمخزن أو الثورة عليه كما حدث مع ثورتي **بوعزة الهبري والجيلالي الزرهوني** الملقب ببوحمارة سيعرف الواقع القبلي للبرانس ظاهرتين لكن بشكل مؤقت. تتمثل الأولى في بروز هرمية واضحة داخل البنيات الاجتماعية والسياسية – الجماعة وبولرباع – عبر فرز القبائل لشخصيات وزعامات قوية على المستوى المحلي،قادرة على تحقيق الإجماع وقيادة الحرب ضد العدو الخارجي. هذه الزعامات تحمل لقب مقدم أو قائد الحرب،أما الثانية فتتمثل في ظاهرة اللف أو اللفوفية أي التحالف بين مختلف المجموعات الاجتماعية الكبرى ، فرق أو قبائل في مواجهة مجموعات أخرى من نفس المستوى.

بروز الهرمية وقادة الحرب واللف بالبرانس يختلف شيئا ما من حيث المسار والأهداف مع قبائل أخرى بالأطلس المتوسط مثل زايان التي وإن كانت تتوفر على مؤسسات سياسية مثل الجماعة فإنها سرعان ما تحولت مع أواخر القرن 19 إلى بنية سياسية هرمية على رأسها قياد أقوياء ارتبط بعضهم شكليا بالمخزن لكنهم ظلوا محافظين على استقلالهم عنه.**فموحى أوحمو الزاياني** الذي فرض نفسه بالقوة والحرب على مخزن الحسن الأول وحلفائه المحليين بالأطلس ثم من بعده على السلطانين عبد العزيز وعبد الحفيظ،فرض نفسه ليس كقائد خاضع ومستبد بل كقائد وزعيم مستقل محارب على كل الجبهات وما يتطلبه ذلك من ربط للتحالفات داخل الأطلس وخارجه.لقد استطاع الزاياني توظيف ورقة خطر العدو الخارجي الصادر عن القبائل المعادية والمخزن ثم فرنسا بشكل جيد كي يسود كزعيم قوي،موحد ومقاوم.(أنظر التفاصيل:**الملكي المالكي بن الجيلالي:** ثورة القبائل ضد الاحتلال.ص: 255 – 257).

خلال مرحلة الحرب يجتمع "بولرباع" البرانس المكون من مجلس الشيوخ ورئيسهم المقدم ليقرروا في كل الترتيبات الخاصة بالحرب، من تعبئة الطاقات القتالية إلى تعيين قادة المقاتلين مرورا عبر توفير المئونة والسلاح وكل ما تتطلبه العمليات العسكرية.عندما تم احتلال منطقة مسون من طرف الجيش الفرنسي القادم من الجزائر نحو تازة،أعْلِنَ الجهاد من طرف"بولرباع" وتم تمكين المقاومين من السلاح والذخيرة كما تم تعيين الحاج **محمد الشّوّاي** قائدا للمقاومين من طرف كل من **أحمد دعبد القادر** رئيس مجلس "بولرباع" بقبيلة الطايفة **وبُوكْعِيبات** رئيس مجلس بولرباع بقبيلة بني فقوص.أنظر:(TRENGA : Les Branes …P :435) .

من داخل مؤسسة "الجماعة" بدواوير الفرقة ومن بين رؤساء العائلات يتم تعيين الأعضاء بمجلس"بولرباع"على مستوى الفرقة القبيلة أي الفخدة.وبدوره يقوم المجلس الأخير بتكليف شخصية ما تتوفر على مؤهلات من ضمنها الشجاعة ومعايير القيادة...كي تقود المقاومين لكن تبقى للمؤسستين "الجماعة وبولرباع" سلطات كبيرة وقوية تحول دون استئثار القائد العسكري بمنافع الموقع المؤقت ومحاولة استثماره في فرض سلطة شخصية بعد عودته من الحرب. ظاهرة اللف قد تأخذ أبعادا أوسع عندما يكون الخطر الخارجي أكبر وأشد،فالقبائل الأربع المكونة للبرانس تفعل اللف ويتحول كذلك المقدمون أو الشخصيات القائدة إلى زعماء حرب حقيقيين بحيث لا تقتصر وظائف "بولرباع" أي مجلس كل فرقة أو كل قبيلة على ممارسة تدبير الشؤون العادية للفرقة بل تضاف إليها مهام طارئة،كتعبئة الموارد المادية والبشرية للمشاركة في المجهود الحربي للقبيلة ككل، وكذا بدل الجهد الكافي لنسيان أو حل أو تجميد الخلافات الداخلية من أجل الوصول إلى أعلى درجة من التضامن والوحدة وتحقيق الانتصار على العدو الخارجي.

ديناميكية مجالس الجماعة وبولرباع واللف بالبرانس تختلف من حيث المسار والأهداف عن نظيرتها بالأطلس المتوسط .فإذا كانت الجماعة بهذا الأخير قد توارت عن الأنظار بشكل كبير لفائدة الشيخ/الأمغار الذي تحول إلى زعيم وقائد مسيطر بفضل مؤهلاته وانتمائه العائلي وكذا تحكمه في المصادر المادية بمدينة خنيفرة ونواحيها وربط للتحالفات والقيام بالحروب ضد القبائل المجاورة والمخزن والجيش الفرنسي لاحقا فإن صمود وقوة مجالس البرانس وكذا آليات اللف وأعرافها كانت بمثابة حاجز صلب ضد بروز السلطة الشخصية والزعامة القوية التي قد تتحول في ظروف معينة إلى سلطة فردية دائمة ومستبدة.

هكذا نجد من داخل الثقافة العامة للمُقاوَمة قيما وتقاليد ومؤسسات قبلية بمثابة ثقافة فرعية مُقاوِمَة للاستبداد لكنها فعالة بالنسبة للثقافة العامة المتمثلة في مقاومة الغزو الخارجي كيف ما كان مصدره.

المراجـــع

عبد الرحمان المودن: البوادي المغربية قبل الاستعمار. قبائل إيناون والمخزن بين القرن 16 و 1 9. الطبعة 1. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. 1995.

أبا عبد الله السليماني: اللسان المغرب في تهافت الأجنبي حول المغرب، ط:1 مطبعة الأمنية، الرباط. 1971.

محمد الباقر الكتاني : ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد. مطبعة الفجر. 1962.

سمير بوزويتة : مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسي للمغرب. 1912-1925. ضمن ندوة: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات. 1900- 1956. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب. فاس. منشورات عكاظ 2001.

ميمون مدهون: المقاومة في منطقة تازة من خلال النص العسكري الفرنسي. ضمن ندوة: المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة، الحسيمة، تاونات. 1900- 1956. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. كلية الآداب. فاس.منشورات عكاظ 2001.
روبير أسبينيون:أعراف قبائل زايان.ترجمة محمد أوراغ.منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.مطبعة المعارف الجديدة.الرباط.المغرب.2007.

بيير كلاستر:مجتمع اللادولة.تعريب وتقديم محمد حسن دكروب.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.بيروت لبنان.1981.

أحمد مزيان:المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القران التاسع عشر-1912/1845-الجزء 2.منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.الطبعة 1.دار أبي رقراق للطباعة والنشر.الرباط.المغرب.2007.

الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا. الجزء 1. الطبعة 2. ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر. دار الغرب الإسلامي.بيروت لبنان 1983.

الملكي المالكي بن الجيلالي: ثورة القبائل ضد الاحتلال.الجزء الأول، الطبعة الأولى.منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.دار أبي رقراق للطباعة والنشر.الرباط المغرب.2014.

المختار الهراس : القائد وأزمة العلاقات القبلية. نموذج الريسوني . المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع. عدد 8 سنة 1986 .

Abdellah LAROUI: Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912) Librairie François Maspero.Paris France.1977.

TRENGA : Les branes. Archives Berbères 1915-1916. Edition-diffusion.dar al kalam Rabat.1987

Querleux :Les Zemmour. Archives Berbères 1915-1916. Edition-diffusion.dar al kalam Rabat.1987

Bruno : Notes sur le statut coutumier des berbères marocains. Archives Berbères 1915-1916. Edition-diffusion.dar al kalam Rabat.1987 **.**

M.Abes :Les izayan d'Oulmès . Archives Berbères 1915-1916. Edition-diffusion.dar al kalam Rabat.1987 .

AUGUSTE BERNARD : Le Maroc. 8ème édit. Librairie Felix Alcan. Paris.1932.

ROBERT MONTAGNE : les berbères et le makhzen. Edition Afrique Orient. Casablanca. 1989.

Germain Ayache : Les origines de la guerre du rif. Imprimerie Najah El Jadida.Casablanca Maroc.1990.

Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech :T :1.Editions Marocaines et internationales. Tanger. Maroc.1983